

# الفصل التاسع

## العلامة محمد علي الفاروقي التهانوي

### وجهوده الفكرية والإصلاحية

(١١٠٠-١١٩١هـ / ١٦٨٨-١٧٧٩م)

منير بن سالم بازهير

أستاذ التاريخ الإسلامي، باحث في الدراسات الإسلامية والتراث، اليمن

m1433@hotmail.com

#### المقدمة:

وكانت توجد في أشكال التقويم الإيراني وعيد النيروز، إلى غير ذلك من المؤثرات الوافدة من الحضارة الإيرانية، فلما تولى أورنك زيب عالمكير (توفي ١١١٨هـ) الهند وجه كل همه إلى القضاء على آثار العهد الأكبر المخالفة للإسلام، والحد من تأثير التشيع الذي كان أكبر مراكزه في جنوب الهند، ولذلك صرف عالمكير الجزء الأكبر من حياته وطاقاته للسيطرة عليه واستئصال التأثيرات الحضارية الإيرانية، فخصص المنصب الشرعي للمحتسب، ليردع الناس عن ارتكاب المحرمات والمنهيات، وعطل كثيراً من أنواع الدخل المحرمة التي كانت توفر للحكومة ثروات طائلة، ووقف الرقص والغناء، وعادة الاجتماع لزيارة السلطان التي كانت تشتمل منها رائحة التقديس، وعين القضاة الشرعيين، وخول حقوقاً وسلطة كبيرة، وتولى تدوين المسائل الفقهية، وترتيبها من جديد، فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة ضخمة باسم (الفتاوى العالمية) التي انتشرت في مصر والشام كذلك، فكانت تعرف باسم (الفتاوى الهندية) واعتُمدت مصدراً من مصادر القانون الإسلامي. وعلاوة على هذه المآثر الإصلاحية كان من أكبر مزاياه وأبرزها، يقظته، وذاكؤه، وجدّه، ونشاطه، واهتمامه بالمسؤولية، ومعرفته الدقيقة بكل صغيرة وكبيرة في أمور دولته.<sup>(١)</sup>

إلا أن التأثير الفكري بأسلوب إيران في الهند واصل امتداده وتأثيره في طبقة علماء الهند في القرن الثاني عشر،

إن خير وسيلة لإشعال المواهب، وإثارة الروح، وتقويم الأخلاق، والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة، والمجتمع الفاسد، والتسامي إلى معالي الأمور، هي سير عظماء الرجال، وزعماء الإصلاح والتجديد والربانيين والصديقين، ويمثل هذا تتجدد الثقة والعزائم لدى النشء في بلاد الإسلام بتاريخ الإصلاح والتجديد، وبصلاحية الإسلام وتعاليمه في إيجاد المصلحين والدعاة وأصحاب الرسالة، والإبداع في التفكير والإنتاج.

ومن هذا المنطلق أقدم في هذه الصفحات دراسة موجزة عن إمام من أئمة الإصلاح في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، قدّم لأمة الإسلام بمفرده رصيذاً عظيماً من العطاء الفكري، والإنتاج العلمي الممتاز، الذي يحمل بين طياته رؤية إصلاحية في آلية التعامل مع مجموعة العلوم الإنسانية على مختلف اتجاهاتها ومضامينها. وهذا العلم هو العلامة الموسوعي الكبير محمد أعلى بن علي التهانوي الفاروقي رحمه الله تعالى.

أولاً: الحالة الحياتية في عصر العلامة التهانوي

أثرت الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية في الهند في القرن الثاني عشر تأثيراً مباشراً في شخصية الإمام التهانوي ومكوناته الفكرية والإبداعية والإصلاحية، فقد عانت الهند عانت من التأثيرات الحضارية لإيران المختلطة بالنزعات المجوسية التي دخلت في عهد الملك أكبر،

من الزمان إلى أن يحيط ويستوعب ويمحص دقائق مسائل العلوم المختلفة مع الجمع لأصولها وقراءتها وفرزها إلى غير ذلك من مستلزمات التأليف الناضج، يتضح لك بجلاء أنه قد ألف كتابه في مرحلة الخمسينات أو الستينات من عمره لتناسب هذه المرحلة العمرية مع مساحة هذا العمل الجبار وموسوعيته ومتطلباته وخبراته. وبهذا تكون ولادته في أواخر القرن الحادي عشر، ويشفع لهذا الاحتمال توليه القضاء في عصر عالمكير (توفي ١١١٨هـ) كما ذكر ذلك عبد الحي الندوي رواية عن الشيخ أشرف علي التهانوي، أن محمد أعلى بن علي التهانوي كان قاضياً في قرية (تهانه) في عهد عالمكير.<sup>(٥)</sup>

أما نسبه فقد أشار الندوي إليه بقوله: محمد أعلى بن شيخ علي قاضي محمد حامد بن مولانا أتقى العلماء محمد صابر الفاروقي السني الخفي.<sup>(٦)</sup> والفاروقي نسبة إلى الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإليه كانت تنسب دولة الفاروقيين في خنديش بالهند، حيث استقلت هذه الدولة عن دلهي عقب وفاة (فيروز تغلق) في أواخر القرن الثامن الهجري، واستمرت حتى أوائل القرن الحادي عشر الهجري، أما التهانوي: فنسبة لبلدة صغيرة تدعى (تهانه بهون) من أعمال مظفر نكر بالهند من ضواحي دلهي. وإلى هذه البلدة ينسب عدد من العلماء منهم: الشيخ عبد الرحيم التهانوي (توفي ١٢٢٣هـ)، والشيخ محمد حمد الله التهانوي، وقطب الزمان إمداد الله التهانوي الفاروقي الصابري المهاجر المكي وغيرهم.<sup>(٧)</sup>

وكان للبيئة العلمية التي نشأ بها العلامة التهانوي الدور البالغ في التكوين المبكر في إذكاء قريحته العلمية وتلقيح وصقل فطرته المعرفية؛ إذ إن أسرته أسرة علم وفضل، فارتفع من والده العلامة أصناف العلوم والمعارف، بل هو الشيخ الأول الذي فتق قريحته وأروى نهمه العلمي والمعرفي، كما صرحت عبارته بذلك في مقدمة (كشافه) قوله: "فلما فرغت من تحصيل العلوم العربية والشرعية من حضرة جناب أستاذي ووالدي شمرت عن ساق الجد إلى اقتناء ذخائر العلوم".<sup>(٨)</sup> ولم تسعف المراجع التاريخية بذكر نماذج أخرى من مشايخه، بل إن المعلومات عن حياة هذا الإمام

فمالوا إلى علوم الحكمة والفلسفة، ولم تُجث جذور هذه السلطة للعلوم الفلسفية إلا في مراحل متأخرة من تاريخ الهند، ولم تكن هناك وسيلة يظهر العلماء من خلالها فضلهم ونبوغهم وإثبات ذكائهم وعبقريتهم إلا حل عبارات المؤلفين السابقين من الفلاسفة، وشرحها والتحشية عليها، ومحاولات فهمها وإفهامها، وكان انتقاد فائدتها وثمرتها إثباتاً للجهل والغباوة وسوء الفهم.<sup>(٩)</sup>

ثانياً: المؤثرات في تكوين شخصيته الفكرية

لم تمدنا المصادر والمراجع التي ذكرت التهانوي صاحب (الكشاف)، بشيء ولو يسير عن مولده، وقد اتفق معظم المؤرخين على أنه من علماء القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.

وكان تأليف كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) في الخمسينيات من القرن الثاني عشر، وأنه فرغ من تسويده في سنة ١١٥٨هـ، وهذا ما أفاده الفاروقي نفسه في مقدمة كتابه (الكشاف) بقوله: "فلما فرغت من تحصيل العلوم العربية والشرعية من حضرة جناب أستاذي ووالدي شمرت عن ساق الجد إلى اقتناء ذخائر العلوم الحكيمة والفلسفية من الحكمة الطبيعية الإلهية والرياضية كعلم الحساب والهندسة والهيئة والأسطرلاب ونحوها، فلم يتيسر تحصيلها من الأساتذة، فصرفت شطراً من الزمان إلى مطالعة مختصراتها الموجودة عندي، فكشفها الله تعالى عليّ، فاقبست منها المصطلحات أوان المطالعة وسطرتها على حدة، في كل باب يليق بها على ترتيب حروف التهجي كي يسهل استخراجها لكل أحد، وهكذا اقتبست من سائر العلوم فحصلت في بعض سنين كتاباً جامعاً لها. ولما حصل الفراغ من تسويدها عام ألف ومائة وثمانية وخمسين جعلته موسوماً وملقباً «بكشاف اصطلاحات الفنون».<sup>(١٠)</sup>

وبالتأمل في هذا النص يلاحظ حدساً أنه ألف كتابه هذا في الخمسينيات من عمره أو الستينيات على أقل تقدير، لأنه حصل قبل ذلك ما يلزمه من أصول العلوم العربية والشرعية وغيرها، وأشار إلى أنه كان يختلج في صدره أوان التحصيل أن يؤلف كتاباً وافياً لاصطلاحات جميع العلوم،<sup>(١١)</sup> وانظر بعقلك كم يحتاج الفكر الإنساني

- في النص السابق إشارة إلى الخلفية الفقهية عند هذا الإمام وإمامه بقواعد وأصول الحيل المشروعية، وهذا يتمثل فيما ساقه من قاعدة: كل حيلة تؤدي إلى الضرر لم تجز في الديانة وإن جازت في الفتوى. فهذا ملمح دقيق يدل على تعمق هذا العلامة في فقه الشريعة وأصولها، وفيه البيان لما يتمتع به هذا العلامة من صفة الورع في الدين والمفارقة بين الباطن والظاهر. وهذا يتضح من قوله: لم تجز في الديانة وإن جازت في الفتوى. وهذا يؤكد ما قلناه من أنه متصوف على قاعدة تصوف السلف. ويومئ النص إلى توفر شروط القاضي العادل في شخص هذا العلامة، واجتماع مقومات القضاء النزيه في شخصه عليه رحمة الله تعالى، ولعل هذا من أبرز أسباب اختيار الحاكم العادل عالمكبر له قاضياً في قرية (تهانه).

وبالتأمل الدقيق فيما كتب عن هذا الإمام، بالإضافة إلى النظر والتتبع للخلفية الفكرية والنفسية العامة له من خلال بعض المصطلحات في مؤلفه الرائع (كشف اصطلاحات الفنون) وصلت إلى أن المؤثرات في تكوينه تنحصر في مؤثرين لا ثالث لهما فيما يبدو، وهما يحملان في طياتهما جوانب لزوايا مختلفة أثرت، وأسهمت بدورها في الإعداد الفكري والنفسي لهذا الإمام، وهما: والده، والبيئة العلمية والاجتماعية في الهند.

#### ١٠ أثر والده:

ذكر في مقدمة (كشافه) أنه حصل العلوم العربية والشرعية من حضرة جناب أستاذه ووالده،<sup>(١)</sup> ويلمح التأثير المباشر لوالده في تكوينه في اتجاهات ثلاثة، هي:

أ- الاتجاه التربوي:

ويظهر تأثير ذلك فيه من حديثه عن والده حديث المجمل والمبجل، ويتضح من قوله: "حضرة جناب أستاذي ووالدي" فيدل هذا اللفظ المؤدب على التأثير النفسي التربوي للأسرة فيه ومن أعظمهم والده الذي نشأ منذ نعومة أظفاره تنشئة فيها الأدب الرفيع، والخلق النبيل. فقدحت هذه التربية في نفسه منذ الصغر تعشق المكارم وتسخط السفاسف والردائل. ومن أعلى المكارم محبة العلم

في كتب التاريخ إلى هذه الآونة لم تسعف الباحثين بشيء جديد له قيمة تذكر فيما يتعلق بتفاصيل حياة هذا العلم المغمور. إلا أننا أسلفنا الحديث عن الحركة العلمية المتأججة في ذلكم العصر، ومن تأثرهم بالعلوم الإشرافية والفلسفية حتى إنهم لا يعدون الرجل عالماً إلا إذا فك عبارات الحكماء وفهم إشارات الفلاسفة. وبالتأمل في بعض ملفوظات مقدمة كتاب (الكشاف) نلمح بوضوح تأثير العلامة التهانوي بالاتجاه الفلسفي الإشرافي، ويتضح ذلك من خلال قوله: "فكشفها الله علي...". والانكشاف مصطلح من مصطلحات الإشرافيين يؤكد مدى انصبغ هذا العلامة بتلك العلوم واندماجه فيها. إلا أنها لم تخرج به عن جادة الشرع وحدوده، فلذلك نجلده وقافاً عند ظواهر الأحكام، معاتباً لمن يريد الحيد عنها أو التحايل عليها في قوله مستطرداً عند حديثه عن معنى مصطلح الاستفتاء:<sup>(٢)</sup> "والمفتي الماजन هو الذي لا يبالي أن يجرم حلالاً أو بالعكس، فيعلم الناس حياً باطلاً كتعليم الرجل والمرأة أن يرتد فيسقط عنه الزكاة أو تبين من زوجها، كما في (الذخيرة)، فكل حيلة تؤدي إلى الضرر لم تجز في الديانة، وإن جازت في الفتوى، كذا في (جامع الرموز) في كتاب الحجر".<sup>(٣)</sup>

ومن هذا النص نستفيد دلالات عدة:

- أن والد العلامة التهانوي لم يكن يميل إلى العلوم الفلسفية، بيد أنه يميل إلى التصوف السلفي، ولذلك لم ينص العلامة التهانوي على قراءته لشيء من كتب الفلسفة على والده بل طالعها بنفسه. وربما لم يرغب والده، في أخذه لها عن الشيوخ، محافظة عليه من أن ينجر في متاهاتها وسماذيرها.

- من أسباب ذكره للنص السابق في معرض الاستطراد ما ينقده من ظواهر اختراق حدود الشرع التي قد تصدر من أبواب التعلم للعلوم مع المفارقة للعمل بها باختلاق الحيل والمخارج، التي قد تنتج عن فلسفة النصوص، مع غياب الوعي عن ثمار هذا التلاعب في إسقاط ظواهر الشرع، وبالتالي غياب حكمته ومقاصده، والتلاعب بأحكامه، فأوردها هنا منتقداً لوضع استشرى في علماء مجتمعه.

البساط الذي يقال إن النووي كان يدرس عليه وينشد: (١٦)  
وفي دار الحديث لطيف معنى

على بسط لها أصبو وآوي

عسى أن أمس بحر وجهي

مكاناً مسه قدم النواوي

وقد دعت نصوص الشرع إلى مجانبة أماكن الظلمة،  
وإن اضطررنا إلى المرور بها نمر بها مسرعين كما روي عنه  
عليه الصلاة والسلام لما أتى وادي ثمود فأمر الناس فأسرعوا،  
وقال: "هذا وادٍ ملعون". وقد روي أنه أمر بالعجين الذي  
عُجن بماء ذلك الوادي فطرح. (١٧)

فتأثره بترية والده الصوفية تبدو واضحة من خلال  
ما سقناه من قرائن، إلا أن تصوفه كان سلفياً .  
ب - الاتجاه الفقهي:

إذا كان والده قد ترك فيه الأثر السلوكي التربوي  
الروحي، فإنه قد شفعه بالجانب الشرعي العلمي، فغرس  
في نفسه محبة علم الفقه والتوسع فيه والإمام بمسائله وأصوله  
وفروعه، حتى بلغ في مرحلة مبكرة من عمره مبلغ القضاة،  
وتولى القضاء مدة في عهد عالمكير، وإذا تأملت استطراده  
في الاصطلاحات الفقيه ومناقشته له إلى حد يقرب إلى  
الترجيح، تدرك مدى ملكته الفقهية ومنزعه الفقهي الدقيق  
في كثير من المسائل. وانظر على سبيل المثال لا الحصر  
كلامه في عموم المشترك، تجد مصداق ما ذكرناه، (١٨) وانظر  
مصطلح الصلاة ترى نزعته الفقهية وتوسعه في هذا العلم  
بما لا مزيد عليه. (١٩)

علاوة على أن من أظهر مؤلفاته كتاب في الفقه  
يتكلم فيه عن أحكام الأراضي، وما هذه الثمرة إلا تأثر  
بمدركات والده وميولاته وتخصصه.

ت - الاتجاه اللغوي:

التمكن اللغوي والأدبي ميزة ظاهرة على صفحات  
(كشاف اصطلاحات الفنون). ومعلوم لدينا أنه لم يرد في  
كتب التاريخ أستاذ له في اللغة إلا والده، الذي ذكر تتلمذه  
عليه، ومن هنا نلمح اهتمامات والده باللغة العربية وتضلعه

والسعي في تحصيله. والنص السابق يدل على غمط الأسلوب  
التربوي الصوفي السلفي الذي رباه عليه والده، وتحدث  
عنه هو عنه عند حديثه عن مصطلح الشيخ فقال: "إذا وصل  
المريد إلى الشيخ ينبغي أن يحتاط ويجتهد في معرفة الشيخ  
أنه هل يصلح للمشايخة أم لا، فإن أكثر الطالبين هلكوا في  
هذا المنزل، بل هلاك عموم الناس كان بالافتداء بالأئمة  
المضلة، وطريقه أن يتفحص أنه مستقيم على الشرع وعلى  
الطريقة والحقيقة". (٢٠) وهو في هذا يؤكد ضرورة مصاحبة  
شيوخ التربية، والتحذير من ادعائها.

وأشار إلى طريق آخر يسلكه في حال عدم الظفر  
بالشيخ المربي فقال: "وقال مشايخ الشاذلية التي هي شعبة من  
الطريقة القادرية: إن طريق السلوك لتحصيل المعرفة والقرب  
في زمان فقدان الولي الكامل والمرشد الهادي، إنما يكون  
بالتزام ظاهر الشريعة وإدامة الذكر والتفكير وكثرة الصلاة  
على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه يظهر نور من  
كثرة الصلاة في باطن المريد، وبه يتضح له الطريق". (٢١) ولعل  
الشيخ استعاض بالذكر والصلاة على رسول الله عن كثرة  
الشيخوخ، ومن ملامح ذلك صيغة الصلاة التي أودعها مقدمة  
كتابه وقال فيها: "والصلاة على من وجوده رحمة للعالمين،  
محمد رسول الملائكة والثقلين أجمعين، أفضل مجموع  
الملائكة والمرسلين، وعلى آله وأصحابه الذين بهم طلع  
شمس الحق وأشرق وجه الدين، واضمحل ظلام الباطن،  
ولمع نور اليقين". (٢٢) بالإضافة إلى استطراداته الطويلة فيما  
يتعلق بمصطلحات التصوف. وهذا يؤكد نزعتة الصوفية،  
وتتبع ذلك في (كشافه) تجده جلياً. وقد شاع في مجتمعه  
ربانيتها وصلاحه حتى قالوا: "إن من يطالع الكتب عند قبره  
يكشف عليه المعاني الدقيقة". (٢٣)

ومعلوم اختصاص البقاع التي يقطنها أهل الصلاح  
بالنفحات، ولذلك حرص جبريل أن ينزل رسول الله صلى  
الله عليه وآله وسلم ليصلي بيت لحم حيث ولد عيسى نبي  
الله عليه السلام كما في حديث الإسراء والمعراج الطويل.  
ولقد كان والد التاج السبكي يمرغ خده في الأرض فوق

العلوم وفك اصطلاحاتها وحشدها في كتاب واحد تسهل مطالعته ، وتغني عن ملاحقة الأساتذة في جزئيات كثيرة، وهذا مقصد من مقاصد التأليف عند المؤلف أشار إليه حينما قال: "وقد كان يختلج في صدري أوان التحصيل أن أولف كتاباً وافياً لاصطلاحات جميع العلوم، كافياً للمتعلم من الرجوع إلى الأساتذة العالمين بها ، كي لا يبقى حيث بعد تحصيل العلوم العربية حاجة إليها إلا من حيث السند عنهم تبركاً وتطوعاً".<sup>(٢٠)</sup>

فهذه هي أبرز المؤثرات وآثارها في فكر المؤلف ونفسيته، التي تدرك بالتأمل في تراثه وإنتاجه. إلا أن العلامة التهانوي صاغ هذه المؤثرات صياغة ببناء لم تخرج به مخرج الشطط الجامح على موروثات الشرع الرباني وركائزه بل قننها التقنين الموافق لاصطلاحات الشرع، وأظهر من خلالها مقومات الحضارة الإنسانية السامية التي يحملها الإسلام للعالم بموازنة فائقة واتزان عديم النظير.

ثالثاً: وفاته:

مثلاً ساد الغموض في تحديد مولد التهانوي فكذلك الأمر في وفاته ؛ إذ غيبت المصادر تاريخ الوفاة، وكل ما يستفاد منها ومن (الكشاف) أنه كان حياً عام ١١٥٨ هـ عند انتهائه من وضع معظم نصوص (الكشاف). أما ما ورد في (الكشاف) من الارتكان إلى بعض المراجع التي ظهرت في بداية القرن الثالث عشر الهجري، فهذا من عمل تلاميذه وإضافاتهم ، فهم الذين تابعوا ضبط (الكشاف) ونصوصه، ولم يذكر عبد الحي الحسيني في (نزهة الخواطر) شيئاً من ذلك، وهو أقدم من أرخ للتهانوي وعنه أخذ الباقر.

إلا أن العلامة أبا الحسن الندوي علق على قول والده في (تاريخه) حينما قال: "وأما تاريخ وفاة المؤلف فلم نقف عليه" فقال: "تحقق من بعض المراجع أنه توفي في النصف الآخر من سنة ١١٩١ هـ، ولم يعرف الشهر واليوم الذي توفي فيهما، فقد ذكر ذلك مرافق القاضي محمد أعلى جليسه المفتي الهي بخش الكاندهلوي في مذكراته. ووفقاً لما ذكر فقد رجح أنه تولى القضاء في عهد الملك عالمكير الثاني

فيها وتشعبه بآدائها ، وهذا نستنتجه بالأثر اللغوي والأدبي الذي لمحنه في مؤلفات ابنه محمد أعلى. ولن أكون مبالغاً إن قلت إن بعض الاستطرادات في بيان بعض الاصطلاحات اللغوية من الممكن أن تكون مبحثاً مستقلاً في موضوع تلك اللفظة التي تقع في (مبحث في الاستعارة) وانظر استطراده في مصطلحها، و(مبحث في العطف) و(مبحث في الكناية) و(مبحث في الظراف) وانظر استطراداته فيها التي تزيد في بعضها على الخمس صفحات، وهذا يدل على السعة اللغوية والملكة العربية عند هذا الإمام مع نشأته في بلاد لا تشكم باللسان العربي، ولكنها همة غرسها المعلم الناجح في تربة زكية الأصل ، طيبة المنبت.

٢٠ البيئة العلمية والاجتماعية في بلاد الهند:

إذا تفحص باحث مصادر كتاب (كشاف اصطلاحات الفنون) يتيقن أن بلاداً حوت تلك المراجع والمصادر جديرة بأن تعد من حواضر العالم الإسلامي، وجدير بأن تُهدي للعالم علماء فطاحل من طراز التهانوي رحمه الله تعالى.

فوجود ذلك الكم الهائل من نوادير كتب الفنون في تلك البيئة يسفر عن حقيقة المستوى العلمي في الهند في تلك العصور، ويكشف عن عظمة التطلعات العلمية التي تشرب إليها نفوس رجالات تلك العصور، ولا شك في أن تلك النهضة وذلك الاتساع والشيق العلمي لمن أعظم المؤثرات في تكوين وإعداد مواهب العلامة التهانوي -رحمه الله تعالى-. ويضاف إلى ذلك اهتمامهم بالعلوم العقلية والفلسفية حتى إنهم لا يعتدّون بالعالم حتى يتقن علوم المنطق والفلسفة والجدل ، فكان ذلك حافزاً آخر أسهم في موسوعية هذا العلامة الذي أحاط إحاطة واسعة بأطراف جميع العلوم المتداولة، وضمّنها كتابه العظيم (كشاف اصطلاحات الفنون) ليقدم من خلاله تاريخاً شاملاً لعلوم العرب والمسلمين على امتداد حقبة الحضارية المزدهرة، إبّان انبلاج قرائحهم وانفتاحها، وتمثلها علوم السابقين المتقدمين مع ملاحقة أعمال المتأخرين.

وهذا كله يسهّل على المتعطين التوسع في مجالات

النص فقط، باستثناء الطبعة المصرية التي حاول فيها المحققون أن يعزوا الأقوال إلى مكانها في المصادر والمراجع، ويعودوا إليها أحياناً، ولم يتبعوا هذا المنهج في كل مكان من النص، وكذلك نقلوا النص الفارسي إلى العربية.

وقد جاء (كشاف) التهانوي قلادة نحر مؤلفاته، استجابة لملء الفراغ في المكتبة العربية والإسلامية. وقد استقصى فيه التهانوي بحث المعاني بإيرادها على مختلف دلالاتها، متدرجاً من الدلالة اللغوية إلى الدلالة النقلية والعقلية ثم العلمية. وتوسع أحياناً في إيراد المسائل التي اقتضاها البحث في مجال من المجالات وأسهب، وسار على المنوال نفسه في بعض الألفاظ الفارسية التي طعمها في الكتاب، وبخاصة في آخره، وكان يعتمد في كل شرح على الكتب المعتمدة في العلوم المختلفة، فيذكرها، ويذكر أحياناً أصحابها يمثل ما يورد الثقات من العلماء والمؤلفين، ويعمد أحياناً إلى إيراد المظان التي نقل عنها، بإرسالها في ثنايا المادة أو في آخرها. وبالجمل فمؤلف (الكشاف) كما قالوا عنه: باحث هندي، لغوي، كان إماماً بارعاً في العلوم ومصطلحاتها. والتهانوي مصنف (الكشاف) يعد بحق حسنة من حسنات الإسلام الهندي.<sup>(٢٦)</sup>

خامساً: معالم شخصية التهانوي

١- الربانية بمدلولها الواسع علماً وعملاً وسلوكاً. وليس أدل على ذلك مما قدمناه من قوله عند حديثه عند مصطلح الاستفتاء: والمفتي الماجن هو الذي لا يبالي أن يحرم حلالاً أو بالعكس، فيعلم الناس حياً باطلة كتعليم الرجل والمرأة أن يرتدا، فيسقط عنها الزكاة أو تبين من زوجها، كما في الذخيرة، فكل حيلة تؤدي إلى الضرر لم تجز في الديانة، وإن جازت في الفتوى.

فالنص في آخره يشير إلى ضرورة مراعاة الصحة في الأحكام الشرعية ظاهراً وباطناً. وهذا لا يراعيه ويلتفت إليه إلا العلماء المتورعون، والورع ركيزة الربانية. وإذا أضفنا إليه قوله: "وعلم الحقائق ثمرة العلوم كلها وغايتها"،<sup>(٢٧)</sup> اتضح هذا المعلم البارز في شخص هذا الإمام الرباني.

ابن معز الدين الذي تولى الحكم سنة (١١٦٧هـ) واستمر متولياً للقضاء إلى عهد شاه عالم الثاني الذي كانت سنة جلوسه ١١٩١هـ.<sup>(٢٨)</sup>

قلت: فإذا صح هذا فإن العلامة التهانوي قد كان معمرأ، لأننا لو افترضنا ولادته سنة (١١٠٠هـ) لكان عمره إحدى وتسعين سنة، أما لو جرينا على ما ذهب إليه أهل التاريخ من أن ولادته كانت في أواخر القرن الحادي عشر، فإن عمره قد يفوق المائة عام، والله أعلم بحقيقة الأمر، وبالجمل فلم تزل ولادته ووفاته يكتنفها الغموض، وما قدمناه من النقول لم يجزم بها أصحابها، فالعلامة الندوي يقول في تعليقه: "لعل المراد منه عالمكير الثاني"،<sup>(٢٩)</sup> قال ذلك معلقاً على قول والده حينما أشار إلى توليه القضاء في عهد عالمكير الأول، ولعل "ليست" من صيغ الجزم واليقين. رابعاً: مؤلفاته: <sup>(٣٠)</sup>

علامة كالتهانوي في سعة العارضة المعلوماتية، من المتوقع أن يترك للأمة مؤلفات ضخمة يستنار بها من بعده. إلا أن كتب التراجم القديمة والحديثة لعلماء الهند لم تذكر من نتاجه ومؤلفاته إلا ثلاثة كتب، هي:

١- أحكام الأراضي: يوجد في المكتبة الهندية تحت رقم (١٧٣٠)، ومكتبة بانكي بور تحت رقم (١٥٩٩)، ويقع الكتاب في ١٩ ورقة، ويشتمل على الأبواب التالية:

- في بيان معنى دار الإسلام ودار الحرب.
  - في بيان أحكام أراضي دار الإسلام.
  - في بيان أنواع الأراضي وأحكامها.
- والكتاب لم يزل مخطوطاً ولم يطبع بعد.

٢- سبق الغايات في نسق الآيات: وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، ذكر بعض المترجمين أنه للتهانوي، وطبع بالهند عام ١٣١٦هـ.

٣- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: وهو أشهر كتبه، بل أشهر الأعمال الموسوعية، وقد نال حظاً وفيراً لدى أهل العلم والتخصص، حتى وصفه أبو الحسن الندوي بقوله: "كشاف اصطلاحات الفنون" كتاب فريد في بابهِ.<sup>(٣١)</sup> طبع الكتاب مرات عدة.<sup>(٣٢)</sup> والجدير بالذكر أن جميع الطباعات على تعددها اكتفت بنشر

وأخذت بمجامع القلوب، وأزالت الريب والشكوك، وعالجت الروح القلقة، والنفس المضطربة، وفتحت في جسم المجتمع روحاً جديدة، وأعادت لأفراد الأمة الثقة والاعتماد بخلود الإسلام، وصدق الرسالة المحمدية، والشريعة الإسلامية، وأن أسباب الرقي والكمال موصولة بها، راجعة إليها. (٢٨)

وشخصية الإمام التهانوي قد توفرت فيها جميع هذه المقومات، فلذا فهو معدود بحق من أرباب التجديد والإصلاح. وأبرز إصلاحاته تكمن فيما يأتي:

١- إحياء العلوم الإسلامية وتجديد الفكر الإسلامي، ويتضح ذلك من خلال وضعه لفهرس يرتب اصطلاحات جميع العلوم بأسلوب جديد وعرض لم يسبق إليه، بالإضافة إلى جمع الفتاوى العلمكيرية في زمن الإمام التهانوي، وترتيبها في كتاب جامع لشتاتها على أبواب الفقه الإسلامي. وفي هذا العمل مؤشرات على توجهات التجديد الزمان لحياة التهانوي.

٢- مقاومة التحجر العلمي والعصبية الشديدة في رد ما استحدث من العلوم، ويظهر هذا من خلال استفادته من جميع العلوم الإنسانية، وعرضها عرضاً يتوافق مع سماحة الإسلام ومقاصده.

٣- الدعوة إلى تركية النفوس وإصلاح القلوب، والوصول إلى درجة الإحسان وتعليم طرقها ومناهجها، وتربية الرجال الأكفيا على ذلك، وهو أثر من آثار بيئة الإمام الدهلوي وتربيته الروحية الخاصة.

٤- فتح آفات رحبة للإبداع العقلي والفكري، وإذكاء عملية التعقل والاستطلاع على العلوم الإنسانية وتبوع اصطلاحاتها وبراهينها، للوصول إلى حضارة متكاملة في جميع مجالات الحياة.

٥- تخصيص مدلولات اللغة العربية وإعطائها حيوية جديدة تناول من خلالها المجدد التهانوي اصطلاحات التراث العلمي الضخم لاصطلاحات جميع العلوم، ولم ينحصر في الدلالة اللغوية العربية فحسب.

٢- العصامية والصبر النادر في تحصيل شتات العلوم واستقصاء مسائلها، وتتبع مظانها، وجمع أصولها العلمية في منهجية علمية فذة ودقيقة، من حيث ذكر المصادر والتأصيل العلمي والمنهجي في تسلسل المعلومات باختلافها، مما يحتاج إلى أمة من الناس. والتهانوي رحمه الله تعالى بمفرده أثبت لنا بمجدارة أنه كان أمة في رجل.

٣- العقلانية المتقدمة، والفكر الحر المستنير بنور الشرع في جميع جزئياته.

٤- النزعة الفقهية والملكة الأصولية، فهو الفقيه المدقق المتوخي للحكم السديد في إمعان وروية، وتأصيل، يسر أطراف القضية.

٥- السعة اللغوية التي جعلت جميع من طالع (كشافه) ينعته باللغوي الأديب والنحوي الماهر، الذي صاغت اللغة معاً لم شخصيته، فصاغ منها للأمة لغة جديدة أحياء من خلالها حضارة ممتدة لعلوم الإسلام على مر العصور.

٦- الرزانة العلمية وعدم الطيش في مكتوباته، وتوخي الدقة والإنصاف في مكتوباته، فلا تجريح، بل إيضاح وإبانة للحق الصريح.

٧- الوحدة المنهجية والموضوعية الدالة على الاستقرار النفسي والمكنة العلمية.

٨- إصلاح القيم والارتقاء بالمستوى الثقافي للأمة الإسلامية.

٩- الحرص على نفائس الأوقات ودقائق الزمان أن تفوت بلا جهد وثمار وإنتاج يحصل به للأمة الأعمار، وللمسترشدين الاستبصار، وللعلوم الازدهار.

١٠- الشجاعة العلمية، ويظهر هذا المعلم من خلال تجاسره على اقتحام لجج العلوم من فلسفة ومعقول وفلك ورياضة وطب وهندسة وغير ذلك.

الخاتمة:

إن المصلح والمجدد هو تلك الشخصية الدينية المتزنة القوية التي سمت على المستوى العام في مقدراتها العقلية والروحية، وامتلك التأثير القوي، وجذبت النفوس

٦- تزويد الأمة الإسلامية بأساس تقوم عليه الحضارة العلمية، من خلال فهم أفرادها لاصطلاحات العلوم وتفعيلها في واقعها، لتكون حضارة تتناول جميع مقومات الرقي الإنساني في أفياء مقاصد الشريعة وضوابطها.

٧- توجيه العقل الإنساني إلى ضرورة صياغة العلوم وتجديدها في كل فترة طويلة من الزمان، لتسريع عملية الوعي والثقافة، ومن ثمّ الإمام بمقومات الحضارة بمدلولها الواسع.

٨- الخروج بالفلسفة من سماريرها المظلمة ودورائها العقيم إلى حقائق نصّ عليها الشرع، وهو أن المعرفة الغيبية لا تتم إلا عن طريق الوحي والاستظلال به، أما المعرفة العقلية والمنطقية والرياضية فطريقها العقل، والمعرفة التجريبية طريقها الحواس وغايتها الظن لا اليقين. وأكد أن الربانية تسهم في تقوية أربابها في كشف حقيقة ذلك كله.

٩- برهن على سعة وخصب مدلولات اللغة العربية، وقدرتها على استيعاب مصطلحات جميع الحضارات، وأظهر رونق اللغة وجديتها.

١٠- التوجيه إلى العمل بالفقه الإسلامي مع الموازنة بين الصحة الظاهرة والباطنة، وهذا ملمح إقران الربانية بالعلم والعمل والدعوة والحياة والواقع.

هذه هي أبرز نقاط الإصلاح التي تُستنتج بالدراسة لنمط حياة هذا الإمام الموسوعي، وإن كشف التاريخ لنا عن إيضاحات جديدة تتعلق بحياة هذا الإمام، يمكن أن تنكشف سمات إصلاحية أخرى لم تكشف عنها هذه الدراسة، فبالمعرفة تنتج المعرفة، وبتكاثف العلوم والمعلوم تتلاقح المدارك وتتسع الفهوم.



## المراجع

- (١) الندوي، علي الحسني. رجال الفكر والدعوة، تعريب: سليمان الندوي، الكويت: دار القلم، ط٣، ١٩٩٣، ج٤، ص٣٩-٤٠.
- (٢) المرجع السابق، ج٤، ص٣٣-٣٤.
- (٣) التهانوي، محمد علي. كشاف اصطلاحات الفنون، لبنان: مكتبة لبنان، ١٩٩٦، ج١، ص١-٢.
- (٤) المرجع السابق، ج١، ص١.
- (٥) الندوي، عبد الحفيظ. نزهة الخواطر، بيروت: دار ابن حزم، ج٦، ص٨٠٤.
- (٦) المرجع السابق، ج٦، ص٤٠٨.
- (٧) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مرجع سابق، المقدمة، ص٣.
- (٨) المرجع السابق، ج١، ص١.
- (٩) المرجع السابق، ج١، ص١٧٠.
- (١٠) البخاري، برهان الدين محمود بن عبد العزيز. ذخيرة الفتاوى المشهورة بـ(الذخيرة البرهانية)، بيروت: دار صادر، (د.ت)، ص٦٥. انظر أيضاً:
- خليفة، حاجي، كشف الظنون، بغداد: مكتبة المثنى، ط١، ١٩٤١، ج١، ص٨٢٣.
- (١١) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مرجع سابق، ج١، ص١.
- (١٢) المرجع السابق، ج١، ص١٠٥٠.
- (١٣) المرجع السابق، ج٢، ص١٠٨٥.
- (١٤) المرجع السابق، ج١، ص١.
- (١٥) الندوي، نزهة الخواطر، مرجع سابق، ج٦، ص٨٠٤.
- (١٦) السبكي، تاج الدين بن عبد الوهاب. طبقات الشافعية الكبرى، البحرين: دار هجر، ط٢، ١٩٩٣، ج٨، ص٣٩٦.
- (١٧) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. الاستذكار، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠، ج١، ص١١٦.
- (١٨) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٤.
- (١٩) المرجع السابق، ج١، ص١٠٨١.
- (٢٠) المرجع السابق، ج١، ص١.
- (٢١) انظر تعليقات الندوي على:
- الندوي، نزهة الخواطر، مرجع سابق، ج٦، ص٨٠٥.
- (٢٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (٢٣) انظر:
- الزركلي، خير الدين. الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ٢٠٠٢، ج٦، ص٢٩٥.
- كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين، الرياض: مكتبة الملك فهد، ط١، ١٩٩٨، ج١١، ص٤٧.
- (٢٤) الندوي، رجال الفكر والدعوة، مرجع سابق، ج٤، ص٥٥.
- (٢٥) طبع بالهند لأول مرة عام ١٨٦٢م على يد جمعية البنغال الآسيوية من سلسلة المكتبة الهندية، كلكتا، وصححه المولوي محمد وجيه والمولوي عبد الحق والمولوي غلام قادر، واهتم به المستشرق النمساوي لويس سير نغر التيرولي (توفي ١٣١٠/١٨٩٣م). والمستشرق الإيرلندي وليس ناسوليس. وصدرت هذه الطبعة في مجلدين كبيرين عدد صفحاتهما ١٥٦٤ صفحة.
- الطبعة الثانية كانت بالآستانة عما ١٣١٧هـ، وهذه الطبعة ليست كاملة؛ إذ انتهى الكتاب بفصل الياء من باب الصاد، في مجلد واحد كبير، عدد صفحاته ٩٥٥ صفحة كبيرة، يليها خمس صفحات تتضمن استدراكات على الأخطاء الواردة في الطباعة.
- الطبعة الثالثة كانت بتحقيق لطفي عبد البديع وعبد المنعم محمد حسنين، وراجعها أمين الخولي، وصدرت عن مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م، تحت إشراف وعناية وزارة الثقافة والإرشاد القومي. وكانت هذه الطبعة في أربعة أجزاء، وهي غير كاملة فقد توقفت عند حرف الصاد، كما هو حال طبعة الأستانة. ثم صوّر في مكتبة صادر ولدئى شركة خياط في بيروت، والصورتان تحصلتا عن طبعنا كلكتا.
- (٢٦) كحالة، معجم المؤلفين، مرجع سابق، ج١١، ص٤٧. انظر أيضاً:
- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مرجع سابق، المقدمة، ط الهند، ص (و).
- (٢٧) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مرجع سابق، ج١، ص٤٢.
- (٢٨) الندوي، رجال الفكر والدعوة، مرجع سابق، ج٤، ص٥٧.